جامعة تكريت

كلية التربية للبنات

قسم التاريخ

المرحلة: الثالثة

المادة : تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي

عنوان المحاضرة: آراء المستشرقين والرد عليها

أسم التدريسي : أ.د. صباح جاسم حمد

الإيميل الجامعي للتدريسي : sabah_jasim@tu.edu.iq

الاستشراق: هو تعبير أطلقه غير الشرقيين على الدراسات المتعلقة بالشرقيين. وتشمل: (شعوبهم، وتاريخهم، وأديانهم، ولغاتهم، وبلدانهم، وأوضاعهم الاجتماعية

وحضاراتهم وكل ما يتعلق بهم)

وكان هدف الغربيين من هذا الإطلاق العام الذي يشمل كل الشرق، مسلمين وغير مسلمين، أن يكون غطاء للهدف الأساسي وهو دراسة كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين، لخدمة أغراض التبشير من جهة، وأغراض الاستعمار الغربي لبلدان المسلمين من جهة أخرى، ومن ثم إعداد الدراسات اللازمة لمحاربة الإسلام، وتحطيم الأمة الإسلامية، وتجزئتها، وتفتيت وحدتها.

ان الدافع الرئيسي للاستشراق ليس البحث العلمي الخالص، ولا يمكن أن يوصف بأنه دافع علمي، لأنه لا يحرص على الحقيقة، بل يحاول تشويهها، يباعث من تعصب راسخ عميق الجذور يعود الى النزعة العدوانية الحاقدة التي دفعت الأوربيين الى الحروب الصليبية، ويستطيع كل باحث عن تاريخ الاستشراق أن يتبين بما لا يدع مجالا للشك أن الهدف الديني كان وراء نشأة الاستشراق ودعم الدراسات العربية الاسلامية والعربية في أوربا.

أما المستشرقون: فهم الغربيون الذين يقومون بالدراسات الاستشراقية، ويقدمون دراساتهم ونصائحهم ووصاياهم الى المبشرين وللدوائر الاستعمارية بغية تحقيق أهدافهم. وظهر ضمن المستشرقين نفر عنى بالدراسات الاستشراقية، رغبة في البحث العلمي المتجرد، دون أن يكون مدفوعا بدافع تبشيري أو استعماري. وكان من بعض هؤلاء إنصاف للحقيقة دون تحيز، وبعض هؤلاء المنصفين تأثر بالإسلام والحضارة الإسلامية، واستطاع أن يتحرر من تقاليده العمياء وعصبيته الجاهلة فأعلن إسلامه.

ثم اتسعت الدراسات الاستشراقية لأهداف متعددة، اقتصادية وسياسية وعسكرية وعلمية وغير ذلك. واحتل كثير من المستشرقين مراكز علمية مرموقة في الجامعات الغربية، وأوكل اليهم أمر منح الشرقيين في العلوم الإسلامية والعربية الشهادات العليا–الماجستير والدكتوراه– بغية صناعة حملة شهادات من بلدان العالم الإسلامي طبق ما يريده المبشرون والمستعمرون. وأخيرا يجب أن نعلم أن المستشرقين لم يتركوا وسيلة لنشر أبحاثهم وبث آرائهم إلا سلكوها ومن ذلك:

١- التدريس الجامعي: فنجد أن في كل جامعة أوربية أو أمريكية معهد خاص للدراسات الإسلامية والعربية.
٢- جمع المخطوطات وفهرستها: حيث بذلوا جهودا كبيرة في ذلك المجال لعلمهم أن ذلك التراث العلمي والحضاري لا يقدر بثمن.
٣- التحقيق والنشر: فقد قام المستشرقون بتحقيق أعداد كبيرة منها ولأمهات الكتب ونشرها ولمختلف التخصصات.
٤- ترجمة كتب التراث الإسلامي من العربية الى اللغات الأوربية.
٥- تأليف الكتب في موضوعات مختلفة عن الإسلام واتجاهاته ورسوله وقرآنه.
٦- إلقاء المحاضرات في الجامعات والمنتديات العلمية والفكرية.

نظرة عامة عن الاستشراق

لقد مر الاستشراق بمراحل مختلفة تأثر خلالها بعوامل وقوى دينية وثقافية وسياسية مختلفة. وتبدأ المرحلة الأولى من بداية الاستشراق حتى بداية عصر النهضة الأوربية وتطور فيها من كتابات فردية غير منظمة حتى أصبح ينمو داخل المؤسسات الرسمية – الجامعات– واتسم في مجمله بالعداء للإسلام مظهرا للصراع الأيديولوجي بين العالمين الأوربي المسيحي والشرق الإسلامي.

أما المرحلة الثانية فتبدأ من عصر النهضة حتى نهاية القرن الثامن عشرالميلادي تأثر خلالها الاستشراق بظاهرة دراسة النزعات الإنسانية وحركة التنوير التي دعت الى تحكيم العقل وفرضه على واقع الحياة. فأدت هاتان النزعتان الى دراسة تاريخ الشرق الإسلامي دراسة علمية وموضوعية.

أما المرحلة الثالثة فتبدأ من القرن التاسع عشر الى وقتنا الحاضر، وأهم ما يميز هذه المرحلة هو عودة العداء السافر لكل ما هو عربي وإسلامي في كل بحوثهم.

ومن هنا نعلم أن المستشرقين أرادوا أن يبرهنوا على أن الحضارة العربية والإسلامية لم تقدم للإنسانية إلا الشيء اليسير جدا، بل ان الحكم العربي الإسلامي وما أبدعه من حضارة لم يكن أكثر من خطا عابر من مجرى التاريخ.

ويرى مستشرق آخر بأن آثار التعصب الديني لا تزال ظاهرة في مؤلفات عدد من المستشرقين، ومستترة في الغالب وراء الحواشي والهوامش المرصوصة بالمصادر والمراجع في الأبحاث. وقد عبر عن ذلك المستشرق النمساوي (ليوبولد فايس) الذي أسلم فيما بعد فقال: (ان الأوربي لا يحتفظ تجاه الاسلام بموقف عقلي متزن مبني على التفكير، بل حالما يتجه الى الاسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب، حتى ان أبرز المستشرقين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الاسلام).

وهكذا وبالرغم من تطور الدراسات الاستشراقية الخاصة بتاريخ الإسلام وتراثه الحضاري تطورا ملحوظا خلال القرن الحالي فإن الدراسات في غالبيتها لا تزال متسمة ومتأثرة بأحكام تعسفية متحيزة.

إن فهم طبيعة الاستشراق وأهدافه تعد بحد ذاتها مشكلة ليست باليسيرة. فهناك جملة ظروف وعوامل تتحكم في عمل المستشرق، وبالتالي في تحليلاته السياسية والحضارية التي يعالجها من تاريخ العروبة والإسلام. فالنصوص التاريخية التي يجمعها المستشرق لكي يقدم صورة تاريخية لظاهرة معينة قد تكون قليلة مقتضبة الى حد الإخلال أو محرفة لغويا، أو أن تكون كفاءة المستشرق اللغوية أو خبراته ومعلوماته عن الشرق أو منهجيته لا تؤهله لرسم الصورة الصحيحة علميا وموضوعيا، ولكي يسد المستشرق هذه الثغرات فإنه يعتمد على الاستنتاج المنطقي، وهنا قد يحمل النصوص التي لديه أكثر من طاقتها، وفي الاستنتاج تعمل عواطف المستشرق الدينية ونزعاته العرقية، وولائه السياسي، وارتباطاته المصلحية بالمؤسسات الرسمية عملها في معالجته لموضوع البحث.

لقد خضعت وقائع التاريخ العربي الإسلامي ومظاهره الحضارية الى معالجات استندت على تفاسير استشراقية مختلفة نجحت من خلالها العقلية الأوربية الاستشراقية في فرض شكليتها

وأليتها على كل مؤسساتنا العلمية بوسائل مختلفة كالتحقيق والتقويم والنقد والسيطرة على مصادر التراث العربي الإسلامي بما يتفق وميولها وأهدافها.

إن هذه النظرة الاستعلائية المتحيزة نظرت الى المجتمع الأوربي على انه مجتمع عقلاني متطور إنساني وراق، ونظرت الى المجتمع الشرقي العربي الإسلامي في كل العصور على انه مجتمع متخلف حضارياً وغير متطور سياسياً يحتاج الى من يوجهه ويرعاه ويكتب تاريخه.

لكن الأدهى والأمر من هذا كله أن يقوم بعض باحثينا ومؤرخينا ومراكز البحوث والنشر العربية والإسلامية بنقل تفاسير بعض المستشرقين وترجمتها الى العربية، حيث شاعت في أوساط المثقفين ودخلت في كتبنا المنهجية ومحاضراتنا الجامعية وباتت حقائق مسلما بها وفتاوى شرعية لا يأتيها الباطل من بين يديها ومن خلفها تتوارثها أجيال الطلبة عن طريق الأساتذة من غير تغيير أو إعادة تقويم حتى أصبح من الصعب تغييرها أو حتى تعديلها.

وعلى سبيل المثال فقد لعبت كتب هاملتون جب وماسينيون الدور الأساسي والهام في إغناء تراث الاستشراق، وأضحت كتاباتهم حجر الأساس ومصدرا مهما وقيمة علمية كبيرة في دراسة تاريخ الشرق.

وبالرغم من ثناء ادوارد سعيد وإعجابه بموضوعية هؤلاء وارتياحه لمدى الحب الذي أظهروه في دراستهم للإسلام فانه وضع ملاحظات على كتاباتهم ومنها أن دراسات جب قد ارتبطت بمعطيات السياسة البريطانية، كما انها لم تتخلص من الطابع التسلطي الاستعلائي، وكذلك فان اعتماده على التراث الاستشراقي القديم ربطه بشكل واضح بسلسلة المستشرقين القدامى.

ويخرج ادوارد سعيد بخلاصة أن هاملتون جب يضع حقيقة استشراقية مفادها عدم صلاحية المسلمين وعقلية الشرق الأوسط للاستفادة من تمدن الغرب، وعليه فانه من الخطأ محاولة تمدين المسلمين ذوي العقلية البسيطة ترجع الذهن الى الدعوات العنصرية القديمة.

لقد سعى المستشرقون الى إلغاء الدور الفكري الإسلامي، ومحاولة تشكيل العقل المسلم وفق النسق الأوربي، وإنجاب تلامذة من أبناء العالم الإسلامي لتقليده في كل خطواته وتفسيراته للتاريخ، فرددناها عن قصد أو دون قصد فشوهت تاريخنا، وزيفت تراثنا وحضارتنا.

والأغرب من هذا هو التقليد الأعمى الذي أصاب مثقفينا الذين ما برحوا يشيدوا بدقتهم وتجردهم للبحث والعلم وقدرتهم على التمحيص والتدقيق وانهم قادة هذا الميدان وفرسان هذا المجال. والمستشرقون حرصوا كل الحرص على أن يضيفوا على أنفسهم هيبة العلم وقداسة محرابه، وأن يخفوا تحت شارته وردائه كل أغراضهم وأهوانهم.

لقد استطاع أجدادنا في عصر رقيهم الحضاري أن يردوا عن دعوات التشكيك ومحاولات التزييف الشعوبية التي انتقصت من دور العرب والمسلمين التاريخي، وعملت على طمس انجازاتهم الحضارية، ومساهماتهم في بناء التراث الحضاري الإنساني وعلى ذلك فليس بإمكاننا أن نعالج كل المظاهر التي خضعت لدراسات المستشرقين لطول البحث في هذا المجال. وسنأخذ نموذجا عن افتراءات المستشرقين عن العصر العباسي الأول وكل ما حدث فيه من تطورات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، والرد على افتراءاتهم وشبهاتهم حول الحقبة العباسية.